فلسفتنا التربوية
بين جذب الماضي وصعوبة الحاضر

الاستاذ: جبار علي السيد

المقدمة

التربية علم من العلوم الحديثة ذات الجذور البـــعيدة في تاريخ الفكر الانســـاني و الحضارات القديمة ، ولما كان لكل علم اطار فلســـفي يستقـــي منه منطلقـــاته الفكرية ومرتكزاته الاخلاقية و اهدافه الاجتماعية استقامت التربية على فلســـفة وقـــواعد فكرية طبعت هذه التربية، او تلك بلون خاص ينطوي على تلك الفلسفة ومكوناتها.

و اذا كانت الفلسفة هي البناء الفكري النظري فان التربية هي المادة المستخدمة في تطبيق تلك الفلسفة ، يجمع عليها العلم و العمل و النظرية و التطبـــيق ، ومثل هذا الفهم يفسر لنا حديث فلاسفة الاسلام عن العمل الذي يقترن بالعلم وعن التطبيق الناشيء عن النظر من الصعب تصور بناء مجتمع من غير عناية جادة بالنشيء و الشباب منذ مرحلة الطفولة، ادركنا اهمية المنهج التربوي الهادف الى تحقـــيق غايات وبمقـــدار ماتستقـــم الاسس التربوية و الاخلاقية في اعداد الشباب بقـــدر ما يضمن المجتمع مستقبـــلا" أمنا" يحفظ له كينونه ووجوده وحقوقـــه وهويته وجميع النظم التعليمية في جميع المجتمعات لايمكن اجتزاؤها من نسقها التاريخي ومحيطها الثقافي فلكل مجتمع نمطه التربـــوي او انماط الثقافة فهناك علاقة جدلية بين الثقافة و التربية في أي مجتمع فالتربـــية هي المرأة للثقافة في أي مجتمع ، و اداة للحفاظ على هويته وتنقيتها من الشوائب.

وهذا الاطار ينطبق على المجتمع العربي الاسلامي كما ينطبق على غيره من المجتمعات، وتأكيدا" لهويتنا و اصالتنا لابد من ربط انظمتنا التعليمية بمبادىء وقيم ديننا ، وفي الوقت نفسه لابد من الانفتاح على الاخر و الاستفادة من تجاربه النافعة و الصالحة ، دون الاستعارة الكاملة و الاقتباس الخاطيء.

لابد لنا اولا" ان نعرف ما المقصود بفلسفة التربية ؟ وما علاقة الفلسفة بالتربية؟

فاذا كان علم التربية يهتم بالطرق التربوية ، والفلسفة تعني البحث عن الحقيقة المطلقة وعن الجوهر واللآمتغير فان فلسفة التربية تعني البحث عن الثوابت والآمتغيرة والجوهر الحقيقي للتربية ، وهذا لايعني ان يعيش الفيلسوف في عزلة عن الواقع حتى يبحث عن الحقيقة المطلقة المجردة وتنعزل الفلسفة عن الحياة ومشكلاتها. الفلسفة التربوية هي تطبيق النظرة الفلسفية والطريقة الفلسفية في ميدان الخبرة الانسانية التي نسميها التربية (١).

فالتربية لايمكن لها ان تنمو وتكمل وتتواءم في التطور مالم تستند الى فكر فلسفي يغذيها بالخبرة والابتكار والابداع في عالم يسابق العلم ومنجزاته وللفكر وتطلعاته . وما دمنا نسأل : لماذا نتعلم ؟ وكيف نتعلم ؟ فستبقى حاجة التربية الى الفلسفة ملحة وضرورية (٢).

ويذهب (جون ديوي) الى ابعد من ذلك فيرى ان كل تربية هي عملية فلسفية بطبيعة الحال ، ولابد ان كل نظريات التربية وممارستها يجب ان تكون اهم ما يشغل بال الفيلسوف . فبالتربية يمكن الوصول الى أي هدف فلسفي ذي تأثير على حياة الانسان ، ويجب على الفيلسوف ان يهتم بمشكلات التربية قبل غيرها (٣).

وهكذا يريد (ديوي) من الفيلسوف ان يكون مربيا" ومن المربي ان يكون فيلسوفا" . ولابد من اعادة الثقة بالفلسفة في قدرتها على معالجة المشكلات الخطيرة التي نواجهها معالجة ناجحة وانزال الفلسوف من برجة العاجي، وان لا يستعمل اللغة الخاصة التي لايفهمها الا طلاب الفلسفة المختصون فيها. ولابد من لغة مغايرة تلك اللغة التي يعبر بها الناس عن الصعوبات المباشرة في حياتهم (٤).

وربما يقال عن الفلسفة انها كلام وانها فقط نقول نعم الفلسفة هي ما تقوله وليس الفلسفة شيئا" اخر سوى ماتقوله. ووظيفة الفلسفة ان تقول ماينبغي ان يقال، وماتراه واجبا" ان يقال. ولابد للفيلسوف ان يستنطق الصمت وفي هذا الاستنطاق ينتج الفيلسوف افكارا" ولايكفي الفلسفة ان تنتج افكارا بل يجب ان نوجهها لمهمتها التي انتجت من اجلها ويحاول فكر الفيلسوف ان يضيء الطريق لذوي الاختصاص كل في مجال تخصصه لان لكل نظرية، فلسفة تهتدي بها على الاجمال، ولكل نظرية تربوية فلسفة

تهتدي بها على وجه الخصوص.

فالخطاب الفلسفي هو خطاب ٠ ومهمة الخطاب ان لايدفع الاشياء عن موقعها ، بل يعبر عن وجهة نظر الفيلسوف تجاه مشكله ما. فالفلسفة مثلا" لاتعالجح عسر القراءة والفهم ، بل من اين تاتي اهمية فعل القراءة وهي ايضا" لاتعالج مسألة العلاقة بين الوالدين والاولاد بل تبحث في طبيعة الاسرة وقيمها وحدودها ٠ وهذا حتى نكون امام مسألة وهي من هو الانسان لكي يحتم علينا ان نربيه(٥).

فالذي يميز الانسان عن الحيوان العمل واللغة والثقافة والحال انه لاوجود لهذه الاشياء من غير التربية ٠ وخير من يعبر عن الفكرة قول كانت ان ما يميز الانسان عن الحيوان هو ان الانسان لايستطيع ان يصبح انسانا" الا بالتربية (٦).

اما السؤال الاكثر اهمية من هذا كله هو مامهمة الفلسفة ازاء علم التربية ؟ ويجيب (اوليفة بول) (٧).

١ . عن تبين الفلسفة نسبية علم التربية فان علم التربية يصبح جزميا" ومضرا" فور اعتبار نفسه علم التربية مطلقا" لان الاطلاق هنا يعني الجمود يعني اللآ تغيير وبالتالي يعن لاحوار بين التقليدي والحديث وبهذا تفقد التربية صفتها التطويرية.

٢ . ان تذكر الفلسفة علم التربية باستمرار بقوانينها الخاصة أي احترام المتعلم غي المشروط واحترام القيم والحقائق التي تحتم على المتعلم ان يصل اليها وبدون هذين الاحترامين تنحط التربية وتصبح تقنية ترويض.

٣ . واخيرا تقوم مهمتها في التفكير في التركيب الممكن بين قطبي التربية أي المتعلم والثقافة.

منذ اكثر من قرن لم يتوقف المفكرون العرب والمسلمون في البحث في مسألة الاصالة والمعاصرة او مسالة الحداثة والتراث، ودارت مساجلات فكرية كثيرة بين دعاة الاصالة ودعاة المعاصرة، واخذ كل مفكر ينظر الى المسألة من زاويته الخاصة ومن منهجه الخاص ومرجعيته الايديولوجية فمنهم الاسلامي السلفي والاسلامي المستنير ومنهم الماركسي ومنهم الليبرالي ٠٠٠٠٠ الخ.

وهكذا اصبحت لدينا مواقف ورؤى ومناهج متعدد الاتجاهات الفكرية المتباناه

ومختلفة باختلاف المصالح والانتماءات السياسية والاجتماعية .

فالبعض يرى الاصالة هي الالتصاق بالماضي او الانتساب الى الاصل والارتباط بعجلة الاجداد والتميز بسمات تحدد هذا الاصل وتعبر عنه ابلغ تعبير (٨) وهكذا يرث الانسان من تراثه عيوبه ومزاياه.

والاصاله عند (محمد عابد الجابري) هي التحرر من التراث .ومن الغرب وهو ما نصنعه في حياتنا كل يوم. ويبقى الاصل التراث مهما" بقدر مايساعدنا على حل مشكلاتنا وتلمس مستقبلنا. (٩)

والذي يعنيه الاستاذ الجابري بالتحرر من سلطة التراث من خلال الالتزام عند التعامل مع التراث باكثر قدر من الموضوعية والمعقولية والذي يعنية بالموضوعية هو جعل التراث معاصرا" لنفسه أي نفصل هذا التراث عنا (أي تحتويه بدل من ان يحتوينا) اما المعقولية فتشتق من خلال جعله معاصرا" لنا ليكون موضوعا قابلا لان نمارس فيه وبواسطته عقلانية تنتمي الى عصرنا وبذلك نتحرر من سلطته علينا ونمارس سلطتنا عليه (١٠).

ويحتوي التراث على عناصر قابلة للحياة والتطور واخرى انتهى دورها بانتهاء لحظتها في سلسلة التطور، وهو خزان للأفكار والرؤى والتصورات .ويحتوي على عناصر تساعد على التقدم والتطور واخرى معيقة (١١).

وما يراه الجابري ايضا"ان تراثنا الاسلامي يمتلك صفة العالمية والشموليه فهو تراث حضاري بأوسع معاني كلمة حضارة. ايضا" يضم رؤى وتصورات دينية وفلسفية ومفاهيم انتقلت من حضارات اخرى. ومثله ايضا" في عالميته وشموليته وتاريخيته الفكر الاوروبي المعاصر. بالرغم من المفاهيم والمقولات والتصورات التي تؤسس الفكر الاوربي المعاصر ذات طابع ايديولوجي واضح تصدر عنه نظرة استعلانية. كل ذلك لايمنعنا من البحث فيه عن اجوبه لكثير من الاسئلة التي تهم واقعنا الحالي ومستقبلنا المنشود.(١٢)

وبذلك يخلص الجابري الى ان أي فصل بين الفكر الغربي والفكر الشرقي في الثقافة المعاصرة فصل تعسفي فالطابع العالمي لكل منهما يجل طرح الاصالة في مقابل

المعاصرة بمثابة وضع الفكر الانساني مقابل نفسه.

والاصالة لاتعدم اصولا" وليست خلقا" من لاشيء وانما هي عملية دمج وصياغة جديدة بجملة من العناصر او الاصول المعروفة تؤدي الى بنى جديدة تطبعها الذات الدامجة بطابعها.

وخلاصة القول ان الدكتور محمد الجابري يرى في التراث او الاصالة وايضا"المعاصرة والتي يمثلها الغرب امور لايمكن الانفلات منها. ولكن يجب التعامل مع التراث بالرؤية النقدية والموضوعية، والتعامل مع الحداثة او المعاصرة بأخذ ادواتها ومناهجها وانجازاتها العلميع والتقنية.

ويذهب الدكتور (محمد عماره) الى ان في التراث ماهو ثابت وماهو متغير اما القسمات الثابتة في الشخصية الحضارية او ما نسميها بالهوية فهي ثابتة تستعصي على التطور والتغير حتى لو كان غزوا كالذي شهدته هذه الامة من قبل.(١٣)

ولو تصفحنا افكار التيارات السلفية لوجدنا على العموم ثلاثة تيارات رئيسية في نظرتها الى الاصالة والمعاصرة مع التقاطع بعض الاحيان بين اتجاهات هذه التيارات. فهناك سلفيون رافضون لكل نظم العصر ومؤسساته وفكره وثقافته وتنطلق هذه النزعة من ان الاسلاف لم يتركوا شيئا" نوعيا" للآخلاف ويجب مواجهة جميع مشكلات العصر بالعودة الى النبع الصافي للآسلام حل لجميع مشكلات العصر وعندما وجدوا الحضور الغربي العميق والغامر في جميع مناحي الحياة العصرية، السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية اضطروا الى تبني مقولة الاستذة أي ان العرب والمسلمين اساتذة اوربا وان انجازات الغرب الحالية فيها شراكه للعرب والمسلمين. وماكان عندنا اصبح عندهم والان (بضاعتنا ردت الينا).

وهناك التيار الثاني او مايسمى بالتيار المعتدل الذي يقبل من حضارة العصر ومؤسساته مالايخالف الشريعة الاسلامية او مايمكن ان تكون له تبرير شرعي وفي نفس الوقت تتسع لديهم دائرة السلف الصالح ليشمل العصور الاسلاميه المزدهرة التي كان فيها الخليفة (صالحا) يعمل بأوامر الدين ويستشيرر اهل الحل والعقد.

اما التيار السلفي الاخير فهو التيار الذي يبحث عن اشباه ونظائر لمؤسسات

ونظم الحضارة الغربية داخل الحضارة الاسلامية معتبرا" هذه المؤسسات والنظم في حقيقتها عربية اسلامية وصفت بأسماء جديدة فالديمقراطية تصبح شورى والتمدن هو عمران والنواب هم اصحاب الحل والعقد ... الخ

بالاضافة الى ذلك نجد من يذهب الى ابعد من ذلك فيردون على المركزية الغربية بمركزية شرقية اخرى فيصبح الحديث عن الاصالة والمعاصرة هو من قبيل الخطاء والوهم . فالحديث الجدي لايمكن ان ينطلق الا من (الاصاله الاسلاميه او الاسلامية العربية وانتهاء بها) وبذلك يعد الشرق هو الاصل ويصبح الغرب رافدا" او فرعا" . وبذلك تتحول اشكالية الاصاله والمعاصره الى وهم (غبي) (١٤)

وفي مقابل النسق السلفي نجد في فكرنا العربي المعاصر نسقا فكريا" اخر يدعو وبكل قوة للتحرر من التراث والاندماج والتناهي في المعاصرة (الحضارة الغربية) ، لان شروط حياتنا في عصرنا تخالف شروط الحياة في الماضي وان التراث يمثل عبئا" ثقيلا" . فعن طريقة ورث العقل العربي الاسلامي العيوب والتي ربما سيعيش بها مهمشا ابدا على هامش التاريخ فلا سبيل للنهوض الا من خلال الاندماج بحضارة العصر (الحضارة الغربية) ونسيان الماضي عن ظهر قلب. واحداث قطيعة شاملة مع الماضي لان مافات قد مات. وهؤلاء الذين ابدوا انبهار شديدا بالغرب وبحضارته بل وحتى في ماضيه انتهى الامر باستلاب كلي. وهناك محاولات قليلة تبنت المنهج الماركسي في رؤيتها الى التراث فهي لاترى في الفكر العربي الاسلامي غير اتجاهات مثالية ومادية.

ويرى هذا النسق استلهام الجوانب المشرقة من التراث والجوانب المشرقة هي كل مايكشف عن وجود فكر مادي في مقابل الفكر المثالي الذي يعتبر دائما" مرادفا" للجوانب المظلمة (١٥) وهكذا تتلون الساحة الفكرية العربية الاسلامية في نظرتها للتراث والحداثة والاصالة والمعاصرة. ولكن ليس ماذكرناه هو وجود حدود فاصلة بين نسق اخر وانما تتداخل وتتقاطع في بعض الاحيان فنجد السلفي ذا ميول ليبرالية ، والليبرالي ذا ميول للسلفية والماركسي الاممي والماركسي العربي والقومي الليبرالي والاشتراكي القومي والسلفي العربي والعروبي العلماني ، والعروبي العلماني ذا ميول

للسلفية ٠ الى غير ذلك من التركيبات المختلفة ٠ ففي حضارة وثقافة أي مجتمع هي في حقيقة الامر نتاج ومحصلة المعارف التي حصل عليها ابناء ذلك المجتمع من خلال التربية او النسق التربوي ٠ والذي يثبت حقيق هذا الامر هو مانجده من اهتمام كبير في اطروحات المفكرين والفلاسفة والمصلحين والاباء وحتى الناس العاديين ٠

ونتفق مع الدكتور الجابري فيما يراه في معالجة هذه القضية المهمة والحساسة عندما يرى" ان قضايا التراث والفكر المعاصر وقضايا التربية والتعليم من ابرز القضايا التي تتطلب معالجتها وعيا" ايديولوجيا" عميقا" ومنهجية علمية سليمة. ان الطرح الايديولوجي لذه القضايا ، وهي قضايا ايديولوجي لهذه القضايا ، وهي قضايا ايديولوجية بطبيعتها ضروري لفهمهاوالاستفادة منها ولكن شريطة التزام المنهجية العلمية بكل ماتفرضه من موضوعية وترو في اصدار الاحكام واتخاذ المواقف "(١٦) وهكذا مايجعلناتعامل معها بفاعلية وموضوعية.

وكما مربنا سابقا" تتلون الرؤى الى التراث بحسب المنهج والمرجعية الايديولوجية ايضا" تتلون هنا النظرة الى التربية باعتبارها قضية تراثية وقضية معاصرة والامر المجمع عليع عند اغلب مفكرينا المعاصرين اننا نعيش اشكاليات تعوق حركتنا النهوضية. ومن هذه الاشكاليات ولدت ازمتنا التربوية وكما خلص الدكتور عبد الله عبد الدائم ان ازمة مجتمعنا العربي المتفاقمة هي في حقيقة الامر ازمة تربوية (٧) فالخلاص اذن بالتربية. فهي سلاحنا في مواجهة الغزو الثقافي والاستلاب الف اكري وهي الدافع والمحرك للمجتمع وهي المدخل للتنمية الشاملة ولا نعني هنا العصا السحرية التي تحل جميع مشكلاتنا وازماتنا. وانما الامر يتغلب العديد من الشروط ،فيجب على جميع مجتمعاتنا ان تضع التربية في اولويات سياساتها وتبذل كل مابوسعها من اجل اختيار نسق تربوي يضع في اولى اولوياتها الانسان كقيمة وثروة حقيقية فالانسان هو العامل الحاسم ان احسنا تربيته وان حدث العكس فهي الطامة الكبرى واختيار مناهجنا التعليمية وفق معايير خاصة بنا كمجتمع عربي اسلامي يواجه تحديا" كبيرا" على جميع الاصعدة.

ان تربيتنا المعاصرة تعيش في حيرة من امرها فهي بين قطبي جذب الماضي

وسلطانه وضغوط الحاضر ومتطلباته. ولو اردنا ان نبحث قضية التربية وعلاقتها بالتراث لابد ان نتعامل مع التراث على محورين رئيسيين الاول هو ماوصلنا من تراث تربوي وكيف نظر مفكرونا الاسلاف الى التربية وكيف تعاملوا مع الطفولة وكيف كان يتعامل المعلم وكيف يتعامل الاثنان مع المنهج. والمحور الثاني هو نقل التراث الى التراث الى الناشئة وكيف يمكن بناء الطفل تراثيا".

ندما نستدعي الماضي نجد ان تراثنا فكر تربويا" نظريا" وممارسة تربوية وتعليمية ، فقد تجسد الاول بما وصلنا من افكار تربوية بعضها افردت له مؤلفات خاصة وبعضها جاء متضمنا" في النتاج الفكري المتمثل بالفقه والغلسفة والتاريخ والسياسة والعلوم الاخرى فأمثله النوع الاول في مؤلفات ابن سينا حيث افرد جزء كبيرا" من كتاب الشفاء لدراسة احوال النفس وماجاء في مؤلفات الغزالي مثل ايها الولد واحياء علوم الدين وميزان العمل وايضا"مؤلف ابن مسكويه تهذيب الاخلاق ، وهنالك افكار تربوية لابن حزم الظافري وفيطوق الحمامة في الالفة والالاف، وكذلك ماجاء في رسائل اخوان الصفا، ولنصير الدين الطوسي ــ اداب المتعلمين، وله ايضا" تذكرة السامع والمتكلم في أداب العالم والمتعلم ، ويعتبر من افضل الم}لفات الاسلامية التي وصلتنا في هذا المجال لغزارة افكاره وتنوعها وما تحمله هذه الافكار من تقدمية ٠ وللقابسي وصلنا احوال المتعلمين واحكام المعلمين، ومؤلفات ابن خلدون وغيرها.

وفي هذا المجال يذكر احمد الشبلي انه لطالما قراء كتبا" ضخمة بعضها يقع في عدة اجزاء لعله يجد ما يفيده في موضوع التربية فتكون حصيلته ضئيلة وربما يخرج بعض الاحيان بلا شيء ، ويرى سبب ذلك هو اهمال المؤرخين للآصلاحات التعليمية وتركيزهم على تسجيل النشاطات السياسية، العسكرية للخلفاء والملوك والعظماء (١٨)

اما من شهده فكرنا التربوي من ممارسة تربوية على ارض الواقع فقد تمثل بعدة مؤسسات تعليمية بعضها وكانت تعتبر جامعات عالمية يقصدها طلاب العلم من كافة ارجاء العالم الاسلامي وبعضها لازالت تحتفظ بمكانتها العلمية، ومن امثلة ذلك بيت الحكمة الذي اسسه الخليفة العباسي المأمون، والذي كان بمثابة مؤسسة للترجمة والتأليف. والمدارس النظامية التي انشأها الوزير السلجوقي نظام الملك حتى بلغ ماانفقه

نظام الملك (٦٠٠,٠٠٠) دينار في السنة مما ادى بالوشاة والحساد ،، بالوشـــايثة عليه بأنه انفقها لتجهيز جيش للآطاحة بملك شاه السلطان السلجوقي.(١٩)

وفي الوقت نفسه تم تأسيس مدرسة النجف الدينية على يد الشـــيخ ابـــو جعفر الطوسي (ت ٤١٥هـــ). واسس الفاطميون الجامعة الازهرية التي افتتحـــت عام ٩٧٢ هـــ أي بعد عامين من وجود القاهرة وقد نظمت على اساس ديمقراطية سليمة فقد حققت فرصا" متكافئة للفقراء والاغنياء على سواء. فيجد الفقراء كل التســـهيلات، من معلمين ومخصصات تساعدم على متابعة دراستهم. ولم تكن الدراســـة مقـــتصرة على التعليم الديني، فحسب بل كان الطلاب ينظمون في حضور برامج الشعر وقواعد اللغة العربية والحساب والهندسة والفلك.

اما على صعيد ماوصلنا من فلسفة تربوية عربية اســـلامية فيلخص (الدكتور نبيل علي) مسار التطور في تراثنا الفكري على المسارات التالية الفلســـفة الاخلاخية ، والفلسفة العقلانية الروحية ، والفلسفة البراجماتية (٢٠)

فالفلسفة الاخلاخية هي الفلسفة التي صاغ من خلالها علماء الدين نمطا" تربويا" في صدر الاسلام ذات طابع تأديبـــي وذا توجه اخلاقـــي محـــض وهدف التربـــية هنا الحصول على العلم النافع في الاخرة والمرغب في الطاعة. والعقلانية الروحـــية كانت وليدة امتزاج المعرفة الاسلامية والفكر الفلسفي اليوناني وخصوصا بعد ان شيد المأمون دار الحكمة وما انتجه الفارابي في تربية مدينته. ومن بـــعده ان ســـينا واخوان الصفا ، وعلى الرغم من التوجه الفلسفي لهؤلاء الا انهم اتفقوا مع الاخلاقـــيين في ان الغاية من التربية والتعليم تبقى غاية دينية لاتحتمل جدلا ولا نقاشا"(٢١)

والبراجماتية يمثلها ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الانساني الذي اقام رويته للتربية على مفهوم (العمران البشرى) على اعتبار التربية ظاهرة حـــضارية وعنصرا" من عناصر تكوين الدولة بل يمكن ان تكون وظيفتها السياسية بديل عن القوة القـــاهرة.

ان الجدل الدائر على ساحتنا الثقافية بـــين الاصالة والمعاصرة انعكس ايضا" على ساحتنا التربوية ان لم يكن العكس فتربيتنا اليوم حـــائرة مابـــين التبـــعية للمنظومة الغربية التي هي بدورها تابعة لفلسفات غربية مختلفة وبذلك اصبحت تربيتنا تابعا" لتابع

وما بين الطوبائية الاسلامية التي تحاول التوفيق بين متناقضات.

ففي مطلع القـرن الماضي سـعى رجال الاصلاح وتعالت صيحـاتهم بـأن الاصلاح لابد ان يسبقه التعليم وتحرير العقول من جبروت القيود بشـى انواعها ، ومثل هذا الاتجاه كل من رفاعه رافع الطهطاوي ومحمد عبدة فقد ضمن الاول افكاره التربوية في مؤلفه المعروف (المرشد الامين في تربية البـنات والبـنين)، فهو يؤيد افكاره تارة بالرجوع الى التراث العربي الاسلامي الى الفكر الاوروبي تارة" اخرى، فأنه يرى بان النهضة الاوروبية قـامت من احـدى الزوايا على تمثيل واسـتيعاب التراث العربـي الاسلامي والاضافة اليه، وبذلك اصبحت لنا شراكة مع هذه الحـضارة ولنا الحـق في الحوار معها والاخذ منها (٢٢).

وقد اهتم محمد عبدة اهتماما شديدا" بالتربية والتعليم كوسيلة لتكوين الرأى العام وطريق الى النهضة، فهو يرى ان في التربية الحل ومن يريد خير البلاد فلا يسـعى الا في اتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع مايطلبه، ان كان طالبا" حقا" بـدون اتعاب الفكر ولا اجهاد النفس (٢٣) فبالتربية وحدها يمكن التدرج من الانحـطاط الى الرقـي. ومن جهوده التربوية ايضا" قيامه بنقل كتاب التربية لهيبربرت سبنسر عن الترجمة الفرنسية.

ومن بين المعاصرين فقد سعى القباني في مصر الى تطبيق فلسفة جون ديوي ذات الطابع البراجماتية، وجاء من بعده كثيرون حاولوا التوفيق مابين الفكر التربـوي الغربي والتربية العربية الاسلامية.

وسعى ايضا" الدكتور (محمد فاضل الجمالي) على تأكيد دور التربية في انقاذ البشر من الظلام الروحي والظلال العقائدي ودعا الى العودة الى القـرأن الكريم لما يحـتويه من ثروة تربوية عظيمة واساليب أية" في النفاسة والاعجاز، وحذر من الاقتبـاس الخاطىء للتربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد القومية الاساسية التي تشمل الدين واللغة والتاريخ والفنون والاداب ، وقد وجه العناية الى العلل المتأصلة في لفكر الغربي فهو ــ أي الفكر الغربي ــ بـالرغم من حسـناته يحـمل جراثيم التفسـخ الاجتماعي والاخلاقي والروحي للعالم الاسلامي ولذا يؤكد الجمالي على دراسته دراسـة نقـدية، وبكلمة مختصرة ان الجمالي يرى ان يكون تعاملنا مع الغرب بطريق ذي اتجاهين (٢٤)

لقد اختلطت ازمتنا التربوية مع ازماتنا الاخرى وظلت اشكالياتها مع اشكالياتنا لاخرى ابحث عن الحل، مرة نذهب الى الغرب لعلنا نجد الدواء الشافي ومرة نعود الى التراث ونقلب اوراقه ومرة نجمع بين هذا وذاك، وهكذا تعددت الرؤى وتداخلت الافكار والادواء ..... بل تفاقم الداء من تسرب الصغار من الفصول الى نزيف العقول وغلبة الفساد في مجالات التعليم، حيث العدد الهائل من اصحاب الشهادات العلمية دون كفاءة ، والتردي والضعف الذي اصاب مؤسساتنا التعليمية، فالاستاذ الضعيف ينقل ضعفه الى الطالب وكذلك الطالب الضعيف سوف يؤثر على مستوى الاستاذ ويضعفه لان الاستاذ مضطر الى النزول الى مستوى الطالب وهكذا يتفاعل الضعف ويزداد، وهناك سبب اخر لضعفنا التربوي عندما يعطي الطلاب جزءا " من المقرر دون اكماله ويعطي الطالب اجازة ببعض المواد لم يحصل الا على اطراف من هذه المواد، ومن الافات الكبرى استشراء ظاهرة الغش التي لم تعد سرا" وتفشيها وممارستها دونما خجل. وينتقل الطالب من مرحلة الى الى اخرى معتمدا" على الغش حاملا" معه ضعفه الذي يرافقه في مسيرته العلميه وربما يأتي يوم يكون فيه احد اركان العملية التعليمية، معلما او مربيا" فماذا يكون حال مؤسساتنا التربوية وهي تحمل بين طياتها هذه الحالات المخجله؟ وليت عند هذا الحد تتوقف ازمتنا التربوية اذ لايزال بعضها متشبثا" بأساليب وافكار بالية من قبيل اساليب الحفظ والتلقين والتمسك ببعض المناهج القديمة، وتباطؤ مؤسساتنا التربوية في استيعاب المتغيرات العلمية والتكنولوجية والاقتصاد واخيرا" وليس اخرا هل يمكن لنا ان نحدد العلاج الشافي لامراضنا التربوية ؟ وما يراه الباحث ان الحل يمكن في اشعال فتيل الثورة في نظمنا التربوية ويجب ان يكون في مقدمة الثوار المسؤولون والقادة السياسيون قبل رجال الفكر والتنظير، وهذه الثورة يجب ان تستند الى فلسفة اجتماعية تبنى عليها فلسفة واقعية تربوية ومتماسكة.

اذا كانت ازمتنا هي اغفالنا لقيمنا الاسلامية والعربية واستعارتنا لقيم غربية عنا اضعفت ثقافتنا وقوضت بنانا الفوقية، فالحل هو في عودة قيمنا الى واقعنا التربوي وليس هنالك تناقص بين التحديث والعودة الى التراث لاستلهام الجوانب الحية والديناميكية وخصوصا" الجوانب الاخلاقية المتمثلة في اخلاق وصفات واحوال

المعلمين والمتعلمين وصفاتهم واحوالهم والحض على طلب العلم. وضرورة توظيف العلم بما ينفع الناس. والاستفادة الكاملة من منجزات الحضارة المعاصرة كلها وكل متغيراتها العلمية والتقنية واستيعابها وتمثلها والتعامل معها في اطار ثقافتنا وقيمنا وما تمليه علينا شريعتنا ودیننا من تشجيع الابداع والابتكار وتوفير كل اللوازم المادية والمعنوية للمبدعين وتشجيع العقول المهاجرة على العودة والمساهمة في البناء.

الهوامش والمصادر

١ . النجيحي ، محمد لبيب ، فلسفة التربية، ط ٢، القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٤ف، ص٣٦ .

٢. النجار، حسين فوزي فلسفة التعلم في دولة عصرية، مجلة الفكر المعاصر، العدد ١٩٧١ ، ٧٢ف ص١٤٠.

٣ . انظر: الجمالي، محمد فاضل، تربية الانسان الجديد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٦٧ ف، ص ١٩٢ .

٤ . النجيحي، فلسفة التربية، ص ١٨ ــ ٢٠ .

٥ . انظر، بول، اوليفية فلسفة التربية، ترجمة جهاد نعمان، سلسلة زدني علما" (٥٣) ، ص ٧ .

٦ . كانت، عمانوئيل، تاملات في التربية، ص ٧٣ (عن بول، فلسفة التربية)، ص ٦.

٧ . بول فلسفة التربية، ص ٩٦.

٨ . المسناوي، احمد، المحرر الثقافي، (٢٤ ــ ١١ ــ ١٩٧٦ ف).

٩ . انظر الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، بيروت، دار الفارابي، ص ٤٧ .

١٠.الجابري، محمد عابد، التراث والثقافة، ط ١ بيروت : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩١ ف، ص ١٧.

١١. ايضا"، ص ٣٨ ــ ٣٩ .

١٢. ايضا" ص ٤٠.

١٣. الهوية والتراث، ندوة اقامها ((المركز العربي للبحوث والتوثيق بالقاهرة)) بيروت: منشورات دار الكلمة ، ١٩٨٤، ص ٤١ .

١٤. التزيني ، طيب في السجال الفكري الراهن، ط١ ، بيروت : دار الفكر الجديد

((سلسلة كتب في مختلف مجاءت المعرفة والابداع))، ١٩٨٩ م ، ص ٢٥.

١٥. يمكن الرجوع الى مؤلفات العرب الماركسين مثل: حسين مروة في نزاعاته المادية في الفكر الاسلامي ، والطيب التزيني في دراسته للفكر العربي والعصر الوسيط.

١٦. ايضا" انظر محمد عابد الجابري (اشكاليات الفكر العربي المعاصر) منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩ م ، ص ١٦ .

١٧. الجابري ، التراث والحداثة، ص ٤٢.

١٨. انظر : عبد الدائم، عبد الله، نحو فلسفة عربية، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١ م، ص ١٧ .

١٩. انظر : علي، سعيد اسماعيل، الفكر التربوي العربي الحديث، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والاداب والفنون، سلسلة عالم المعرفة العدد ١١٣ ، ١٩٨٧ م، ص ١١١ .

٢٠. داود، عزيز حنا، مائة عام من التعليم في مصر، صحيفة التخطيط التربوي (العدد السابع) شباط ١٩٨٥ م، ص ٧١.

٢١. انظر : علي، نيل، الثقافة العربية وعصر المعلومات، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والاداب والفنون، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦٥ ، ص ٣٠٢ ــ ٣٠٥ .

٢٢ . انظر : شكري، غالي، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، ص ١٤٨.

٣٢ . ايضا"، ص ١٤٩ .

٢٤. ايضا"، ص ١٨٣ .